هكذا يفكر أصفياء الله

المتروبوليت سابا (اسبر)

ولد الأب المعترِف رومان براغا في العام ١٩٢٢ في رومانيا، ورقد بالرب في العام ٢٠١٥ في الولايات المتحدة الأميركية. يعتبره الكثيرون قديساً ويصلون من أجل إعلان قداسته رسمياً. عانى من اضطهاد رهيب شديد القساوة في سجون رومانيا الشيوعية لمدة أحد عشر سنة، ومن اضطهاد معنوي قاسٍ طوال الفترة التي قضاها بين خروجه من السجن وسفره إلى البرازيل، الذي دبّره له بطريرك رومانيا يوستينيانوس في العام ١٩٦٨، كي يخلّصه من الملاحقة الأمنية بسبب نشاطه الرعوي. خرج من السجن وكان شماساً، واضطر إلى طلب العمل في عدة أبرشيات لقاء لقمة الخبز، فجوبه باعتذار العديد من الأساقفة. فلم يحقد، بل التمس العذر لهم في الخوف من سطوة الاضطهاد الذي كانت الكنيسة ترزح تحته آنذاك.

نتعرف إليه في كتابه: "اكتشاف العالم الداخلي: الفرح – سر الحياة"، وهو مقابلة طويلة معه، يتطرق فيها إلى مواضيع كثيرة من حياته، ومن تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية في رومانيا المعاصر، وروحانية الكنيسة الأرثوذكسية وشعبها وقضايا كثيرة أخرى.

لفتني صفاء روحه ونقاءها في بعض أجوبة له على أسئلة وجّهها القائم بالمقابلة وهو روماني مثله. في سؤال طويل يشمل عدة صفحات ينتقد الصحافي الأساقفة الذين قبلوا مساومة السلطات الشيوعية ولزموا الصمت عن اضطهاد المسيحيين الوحشي في السجون والمعتقلات لا لسبب سوى الإيمان والغيرة على الكنيسة. حاربت السلطات آنذاك بوحشية كل عمل رعائي على المستوى الشعبي، وأبقت قسم من الكنائس مفتوحاً وبعض المنشورات اللاهوتية العالية التي لا يفهمهما الشعب وتالياً لا خطر منها، لكنها تُظهر للعالم أن الكنيسة حية وتخفي وجه الاضطهاد.

في هجومه على الأساقفة يقول الصحافي له بشكل غير مباشر ما معناه أن النعمة قد غادرت الكنائس "المفتوحة" الى السجون حيث يعاني المؤمنون فظائع يومية. فيجيب الأب رومان: "لم أؤمن قط بأن الروح القدس انتقل من الكنيسة الرومانية (رومانيا) إلى السجون، كما يبدو مما تريد قوله في سؤالك. عندما كنا في السجن كنا نصلي كي يبقى رؤساء كهنتنا حيثما هم وألا يأتوا إلينا، لأن الروح القدس يكون حيثما تكون

الأسرار المقدسة، حيثما تتمم الليتورجيا (القداس) الإلهية، حيثما تتلى خدم الساعات والغروب والسَحَر. الروح القدس هو حياة الكنيسة. إذا كنا أعضاء الكنيسة حقاً، أعضاء جسد المسيح المقدس، فإننا نتغذى بالروح القدس فقط. لا توجد الكنيسة من دون رؤساء كهنتها. فالكنيسة مجبولة من رؤساء الكهنة والكهنة والشعب. كما أنك لا تخّطئ الكنيسة بسبب خطأ بعض الأفراد، لا يمكنك ان تتبلبل بسبب بعض رؤساء الكهنة. لقد ساومت رئاسة الكهنوت، هذا صحيح، لكنهم بمساومتهم ظلوا يصلون كرؤساء كهنة [حافظوا على عدم انقطاع الأسرار]، ولا يمكن للكنيسة أن توجد من دونهم. نعرف ضرورة وجودهم أيضا من آباء الكنيسة القديسين. لا يمكنك أن ترى الكنيسة مؤلفة من الشعب وتلغي رؤساء الكهنة."

ويتابع: "أعتقد بأن الكنيسة، أقله في رومانيا وروسيا، تقّوت تحت الاضطهاد الشيوعي. وأجرؤ على القول بأن الألم يُنضج لا الأفراد فقط، بل الكنيسة أيضاً. يؤكد نيقولا بيرديابيف (فيلسوف مسيحي) في أحد كتبه أن الكنيسة كانت قوية تحت الاضطهاد في الثلاثمائة سنة الأولى، لكن بعدما منح قسطنطين الكبير الحرية للمسيحيين، ضعفت الحياة الروحية في الكنيسة، وصارت الكنيسة مؤسسة أكثر مما هي واقع روحي. الأمر نفسه حدث في زمن الشيوعية؛ كانت الكنيسة مضطرة إلى أن تحد نشاطاتها داخل جدران "المعبد" الأربعة فقط. لا أعرف الحال في البلدان الأخرى، لكن الكنيسة الرومانية اليوم تقود حملة إعادة بناء مادي وروحي. فالكهنة صاروا يخدمون في داخل المدارس والمستشفيات والجيش. أنا متفائل؛ وأعتقد أن الكنيسة الرومانية ستساهم في تجديد الأرثوذكسية في نَفَس الأمة الرومانية."

وفي جوابه على سؤال حال الكنيسة في التاريخ الذي شهد بطاركة وأساقفة هرطقوا أو انغمسوا في رغبات شهواتهم، يقول: "أقول لك الحق ، أنا لا أرتاح إلى فكرة أنه إذا كان رؤساء الكهنة خاطئين فلا وجود للكنيسة. ولا على الفكرة القائلة بما يسمى نخبوية روحية، بحيث يجب أن يكون جميع الأساقفة، دون استثناء، دون الشبهات. وكي لا تسيء فهمي، أقول: يجب أن يتحلى الأساقفة بمثال حياة فوق كل الشبهات، لكن إذا لم يكونوا كذلك، فلا ينفي هذا الواقع وجود الكنيسة. لا أجرؤ على القول بأنه إذا ما وجد أسقف خاطئ شخصياً فإن روح الله لم يعد يعمل فيه، لأن الروح القدس يعمل دوماً على خلاص كل الناس، بغض النظر عن استحقاق أولئك الذين يشغلون مسؤولية إقامة الأسرار المقدسة. يستخدم الروح القدس أسقفاً اليوم ويستخدم غيره

غداً. لكن الكنيسة هي هي. كثير من الكهنة ليسوا مستحقين لكن الروح القدس حياة الكنيسة، حتى لو أن بعض أعضائها مرضى أو مجروحين بالخطيئة."

وعندما يحرجه الصحافي بقوله إنك تقول ما معناه: أن تحلّي الأسقف بحياة الفضيلة ليس ضرورياً لاستمرار الكنيسة. يجيب: "لم أقل هذا مطلقاً". ويلفت نظره إلى أن أساقفة كثر قديسين "وُجدوا وعقدوا المجامع المسكونية في الوقت الذي وقع فيه كثير من الأساقفة في الهرطقة. لكن الكنيسة استمرت في الوجود والروح القدس بقي فاعلاً على الرغم من الأزمات الكثيرة التي حدثت."

ويستشهد بعد ذلك بالشعب المؤمن الذي كان يملأ الكنائس على الرغم من الاضطهاد الشرس، وعلى أهمية استمرار تغذيتهم الروحية بالأسرار الكنسية. وهذا ما حفظ الكنيسة بنظره.

يقول: "الشعب الأرثوذكسي المؤمن كان حكيماً في تلك الأيام ولم يترك الكنيسة. فالكنائس تحت الاضطهاد كانت مكتظة بالمؤمنين أكثر مما في الفترة المسماة بالحرة، أي عندما بدأنا نتمتع بالحرية والديموقراطية ولم يعد أساقفتنا يساومون السلطات. عندما كنا في السجون كنا نصلي من أجل رؤساء كهنتنا آملين أن يعملوا شيئاً ما لتبقى الكنائس مفتوحة". ويستشهد بالقديس جناديوس الثاني بطريرك القسطنطينية الذي وقّع اتفاقاً مع السلطان العثماني بعد سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك يقضي بأن تنحصر خدمات المسيحيين في داخل الكنائس التي بقيت لهم. ويستشهد بقول ذلك البطريرك القديس: "إنه الوقت الذي يجب أن نضحي بالأشكال الخارجية كي نحفظ الجوهر."

ليتحنن الله علينا ويفيض نعمته في نفوسنا، هو القائل: "حيثما كثرت الخطيئة فاضت النعمة."